الطب الإسلامي والعلم الحديث

عبد العزيز ابن عبد الله

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إن التنظير بين تعاليم الإسلام كدين وبين الطب كعلم يبرره اهتمام الإسلام خاصة بهذا اللون من المعرفة الإنسانية ذات التطبيقات العلمية التي تتلاءم مع ما جاء به الإسلام من توجيهات وتخطيطات في الحقل الحضاري وخاصة الاجتماعي. وهذا هو ما فسح المجال لرجالات العلم من متكلمين وأصوليين ومحدثين للاسهام في هذا المجال الذي يعتبره البعض خاصا. موغلا في التخصص في حين أن الإسلام يعتبره أشد علاقة من كل المؤثرات الاجتماعية لأنه يكيف المجتمع ويسهر على سلامته المادية التي تعزز سلامة الروح الموكولة إلى علماء الدين بل أن المنهج الرئيس الذي سار عليه الإسلام وطبع تعاليمه بكثير من اليسر والمرونة هو المبدأ القائل بأن «حفظ الأبدان مقدم على حفظ الأديان». ولهذا نجد الكثير ممن تخصص في العلوم الدينية عززها بالمشاركةفي الطب وما يتصل به من نفسانيات وصيدلانيات وإن تاريخ الفكر الإسلامي ليحفل بهذا الحجم المتصاعد من جهابذة

المعرفة الذين نهلوا من المنبعين لضمان التوازن بين عنصري المادة والروح الذين يشكلان الشقين المتناسقين في الهيكل البشري والعاملين الأساسيين في ضمان ذلك الكيان المتلاحم الكفيل بحفظ النوع في مثالية مزدوجة اعتبرها الإسلام القوام الأول في تعاليمه الإنسانية التي فرضت بذلك صلاحيتها لكل عصر ومصر وكل زمان ومكان.

إن الإسلام قد عني بمفهوم الإنسان وأهدافه وأبعاده في خضم الحياة ومصايرها المستقبلية دون أن يغفل ذلك الشق الآخر الذي يتصل بمآله الأبدي وكل ما يحقق هذين الهدفين يتدرج في تعاليم الإسلام التي جاءت مجملة دعما لمرونتها وانطباقها على حاجات العصر ومقتضيات التطور.

ومنطقية ما يأمر به الإسلام أو ينهى عنه تحقق بإمكان إخضاع كل هذه المأمورات أو المنهيات لتجربة علمية برهنت مع الزمان على مثاليتها، فقد بدأنا نلمس فعلا صحة ما كنا نؤمن به غيبا حول ما ورد من تعاليم حول نظام التغذية في الإسلام والوقاية الصحية ومكافحة الغوليات والمخدرات مع العمل الموازي من أجل تربية النفس التي تشكل دعامة الأمراض العصبية التي دلت الإحصائيات على أنها تمثل أكثر من تسعة أعشار الإصابات البشرية.

ولا يمكن التعرف على فعالية وجدوى هذه التعليم إلا في نطاق منهج استقرائي يحلل تطور الإنسان منذ تكوينه في الرحم إلى أن يكتمل وينمو ويترعرع ثم يهرم وينهار مع ما يتخلل ذلك من ظواهر وأحداث وكل ذلك يشكل العمود الفقري لمناهج الدراسة الإنسانية في كل مجالاتها واختصاصاتها وقد يتجلى جانب من ذلك في تحليلنا العلمي الدقيق لمحتويات القرآن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والحديث في نطاق نقد لغوي دقيق ودون ضغط على المفهوم القرآني إخضاعا له للمدلولات العلمية التي تؤكد التجارب المتوالية ضعف الكثير منها.

فإذا درسنا علوم الطب من خلال تعاليم الإسلام فإنما ندرس معطيات عارضة جاءت عفوا في مضامين قرآنية أو حديثية، وفي ثنايا ما يعلق بالإنسان أو يطرأ على سلوكه أو يكيف مجرى حياته ككائن حي متطور.

ويمكن أن نضيف إلى هذه العطاءات القرآنية والحديثية معطيات تجددت في ظل الإسلام من خلال تجارب علماء الإسلام.

وسنضرب للنوعين أمثلة حية لنتعرف على مدى إمكان ملء مجال واسع من مناهج كليات الطب الإسلامية بتلك العطاءات وهذه المعطيات ولعل الفكر المنطقي في مجراه العلمي ومجالاته الجامعية لم يطبع الحركة العلمية الطبية بأوربا إلا في القرن التاسع عشر مع ظهور كلود بيرنار CLAUDE BERNARD الذي وضع أسس منهجية الطب التجريبي في العصور الحديثة مع أن الفكر الديني الذي دعم تسلسل السند في الحديث من خلال شروط دقيقة سار عليها المحدثون أمثال الإمام البخاري - هو الذي فسح المجال للملاحظة والتجربة في مختلف العلوم وخاصة الطب إلى حد أن هنالك مثلا جاريا في العالم العربي منذ حقب يقول : «سل المجرب قبل أن تسأل الطبيب» اللهم إلا إذا كان الطبيب هو نفسه مجربا.

وقد لاحظ الدكتور (موريس بوكاي)[1] ان العلم اتسم لأول مرة بطابع دولي في الجامعات الإسلامية في العصور الوسطى حيث كان العلماء

1) في كتابه «التوراة والقرآن والعلم» (الطبعة الفرنسية ص 119).

أكثر تشبعا بالروح الدينية منهم في عصرنا ولم يمنعهم ذلك من أن يكونوا في المجتمع الإسلامي مومنين وعلماء في آن واحد ذلك أن العلم والدين توأمان.

وقد لاحظ ابن القيم الجوزية في (الطب النبوي) أن المرض نوعان مرض الأرواح ومرض الأشباح أي الأجسام وكلاهما منصوص في القرآن وتنقسم أمراض الروح إلى نوعين : مرض الشك والريبة ومرض النزوات والشهوات.

قال تعالى : ﴿**في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا**﴾.

وقال : ﴿**وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين أفى قلوبهم مرض ؟ أم ارتابوا ؟ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟ بل أولئك هم الظالمون**﴾.

وقال : ﴿**فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض**﴾.

والرسول ﷺ تعد أحاديثه المتعلقة بالأدواء والأدوية بثلاثمائة وقد ذكر حاجي خليفة في كشف الظنون ستة مؤلفات في الطب النبوي وكتب عنه كثير من الأوربيين مثل كانبي وريسك وبيرون ولنور الدين أبي الحسن علي ابن الجزار المصري (السر المصطفوي في الطب النبوي) ولجلال الدين أبي سليمان داود كتاب في الطب النبوي[2] كذلك وقد ترجمه م. بيرون إلى الفرنسية وهو ينقل عن ابن البيطار وتوجد رسالتان في الطب النبوي لمؤلفين مجهولين حلل إحداهما ريسك في «رسائله الطبية»

2) للسيوطي كذلك مصنف في الطب النبوي.

والثانية كانبي في «حياة محمد» وقد أعطت هذه الرسالة لكانبي هذا فكرة سامية عن علم الرسول عليه السلام[3] (لوكلير ج 2 ص 315).

كما لأحمد بن يوسف التيفاشي المتوفى عام 651 هـ / 1253م.

(الشفا في الطب عن المصطفى).

(الديباج ص 74 / بروكلمان ج 1 ص 495 وملحقه ج 1 ص 904.

وقد كان من المقرر في حضارة العرب أنه لا تستوطن إلا بلدة فيها سلطان قاهر وطبيب ماهر ونهر جار وقاض عدل وسوق قائم (زهرة الآس ص 24) واكتسى علم الطب في مختلف العصور الإسلامية أهمية كبرى جعلت منه فرضا كفائيا وقد ذكر ابن فرحون في الديباج «أن محمدا المازري كان يفزع إليه في الفتوى في الطب في بلده كما يفزع إليه في الفتوى في الفقه ويحكي أن سبب قراءته الطب ونظره فيه أنه مرض فكان يطبه يهودي فقال له اليهودي يوما يا سيدي مثلي يطب مثلكم وأي قربة أجدها أتقرب بها في ديني مثل أن أفقدكم للمسلمين فمن حينئذ نظر في الطب»[4](ص 253).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

3) قال عليه السلام كما في مسلم (ج 7 ص 27) طبعة محمد علي صبيح) إن هذا الطاعون رجز سلط على من كان قبلكم أو على بني إسرائيل فإذا كان بأرض فلا تخرجوا منها فرارا منه وإذا كان بأرض فلا تدخولها وعلل بعضهم ذلك بعدم نقل جرثومة الطاعون إلى الأرض الخالية منه.

أما قوله ﷺ (مسلم ص 30) : لاعدوى ولا طيرة الخ... فيقابلها قوله عليه السلام : «فر من المجذوم فرارك من الأسد» وورد في (مسلم ص 31) أن أبا هريرة كان يحدث عن رسول ﷺ قوله لايورد ممرض على مصح وكان يحدث كلتيهما ثم صمت عن قوله لا عدوى وأقام على أن لا يورد ممرض على مصح قال أبو سلمة لا أدري أنسى أبو هريرة أو نسخ أحد القولين الآخر.

4) كان الشافعي يقول : «لا أعلم علما بعد الحلال والحرام أنبل من الطب إلا أن أهل الكتاب قد غلبونا وكان يتلهف على ماضيع المسلمون من الطب ويقول : «ضيعوا ثلث العلم ووكلوه إلى اليهود والنصاري» وكان يقول : «شيآن أغفلها الناس : العربية والطب» (آداب الشافعي ومناقبه) 321.

وقد كلفت الأمانة العامة لجامعة الدول العربية الدكتور صلاح الدين المنجد مدير معهد المخطوطات في الأمانة العامة بوضع كتاب عن مصادر تاريخ الطب المخطوطة وقد انتهى الدكتور المنجد من عمله وجمع ألف مخطوط عربي يبحث في الطب في مختلف أقسامه وفي مختلف العصور العربية[5].

إن قدسية الأحاديث النبوية حدت علماء الإسلام إلى ضبط المنهجية العلمية في البحث والتنقيب حتى لا نقع في الخطأ وانصبت هذه القدسية على الحقيقة العلمية حيث كانت وكيفما كانت ولعل الشروط التي وضعها المحدثون لذلك قد سبقوا بها ما وضعه العالم الفرنسي (ديكارت) بعد عدة قرون في قواعده الأربع[6] وقد تبلور هذا التمازج خاصة في المشاركة بين علمي الأصول الحديثية والفقهية والكلامية من جهة وعلوم الطب والصيدلة من ناحية أخرى.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتتبلور أسس الأدواء حسب الفكر الإسلامي في ثلاثة محاور هي حفظ الصحة والحمية وتنحية المواد الضارة من الجسم.

وهي كلها في قوله تعالى :

---

5) راجع مجلة معهد المخطوطات العربية (المجلد الخامس ج 2 ـ نونبر 1959).

6) (في كتابه : خطاب حول المنهجية ـ القسم الثاني).

وهي عدم الارتجال والاستعجال والارتكاز على الظن وتجزئه المصاعب لدراسة كل واحد على حدة والانتقال ـ في مسار ذهني رصين ـ من الأبسط والأسهل للتدرج إلى المعقد ثم الأكثر تعقيدا.

وكذلك المحدثون يحللون الأحاديث حسب مراتب الرجال للتعرف بكيفية منفصلة عن بعض صفات الرواة ثم التأكيد من معاصرة هؤلاء الرواة لتصحيح الحديث.

1) ﴿**فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر**﴾ (معناها الدعوة إلى الحفاظ على الصحة والطاقة).

2) ﴿**فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك**﴾ (وفيه دعوة إلى تطهير الجسم مما يتعلق به من جراثيم وذلك بحلق الشعر خلال الاحرام للمريض وبذلك تتفتح مسام الجلد وتخرج الخبائث من الجسم).

3) ﴿**وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أولا مستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا**﴾ (العدول عن الماء إلى التراب لتلافى كل ضرر يحصل للجسم).

كل ذلك يبرز تفاعل العنصر الديني وعنصر العلاج الطبي.

وقد عني الإسلام بحفظ الصحة (Rygiène) فحض على الطهارة (وثيابك فطهر) والغسل والوضوء والاستنجاء والاستبراء والسواك بدل غسل الأسنان ببول البقر في أوربا[7 - 8 - 9] ولوازم الفطرة (وهي غسل ما برز في الجسم لحمايته كالأظافر وشعر الابط والأنف والعانة والختان (الخ) وذلك بالإضافة إلى تطهير الثياب (وثيابك فطهر الآية) كل ذلك تمهيدا لتصفية الفكر وتطهير العقل من الوساوس والهواجس المثيرة للأعصاب.

---

7) راجع الكتب الآتية :

8) (تاريخ الطب) ـ لافاستيني.

9) موجز الإسلام والطب للشطي الذي ذكر أن لوران جوبير طبيب ملك فرنسا هنري الثالث كان يفتخر باستعمال البول لتحسين حالة الأسنان.

9) الإسلام والثقافة الطبية للدكتور أمل العلمي (أطروحة)

وهكذا اهتم الإسلام بالطهارة كعلاج وقائي للجسم والروح معا كما دعا إلى الالتجاء إلى الله تعوذا من الخوف والقلق واليأس مع الابتعاد عن الخمور والمخدرات والميسر والقمار لطرد أسباب هذا القلق[10]. وقد أبرز الأستاذ ارنيست إذ ولف الطبيب الجراح في جامعة سان جوهن الأمريكية هذا الشرط في دعم العلاج الطبي الحقيقي[11].

وبخصوص الصيام أبرز الدكتور ماك مادان وهو من أمهر الأطباء الأمريكان في كتاب أفرده للصيام ـ النتائج الباهرة التي يسفر عنها الصيام وأثره الحاسم على الأمراض المستعصية مؤكدا أن كل إنسان في حاجة إلى الصوم حتى ولو لم يكن مريضا لأن السميات (أو الذيفانات) الغذائية والعلاجية تتراكم في الجسم مسببة التوعك مع تثاقل وتناقص في النشاط فإذا تم الصيام خف وزن الصائم وانحسرت الذيفانات عن جسمه فتصفى ويتنقى كليا مع انبثاق شعور لديه بعد مرور أيام على صومه بحيوية وقوة لم يعهدهما من قبل فالصوم يعالج كل أمراض المعدة والأدوار الدموية وأوعية الدم كالرثية (الروماتيزم). وهذا مصداق قوله عليه السلام «صوموا تصحوا».

فالكشف عن الداء ووصف الدواء من أسس الشعائر الدينية في الدين الحنيف.

فالإسلام اعتبر أن لكل داء دواء وأن المريض يجب أن يبحث لمرضه عن علاج وإلا عوقب بسبب إلقاء نفسه إلى التهلكة كما يجب أن لا ينساق

---

10) أشار الدكتور أمل العلمي إلى شهادات الأستاذ تورنير حول الإسلام والطب.

11) حيث أوضح أن 80 ٪ من الأمراض المحصاة في المدن الأمريكية ترجع لأسباب نفسانية ونصف هذه النسبة من الأمراض غير عضوية.

مع المفهوم المخطئ للقضاء والقدر لأن محاولة العلاج أيضا داخلة في مفهوم القدر.

وفي الوقت الذي اعتبر الإسلام المتطبب ضامنا إذا غلط في نوعية العلاج فإنه سهل ماموريته بإباحة ما لا يباح لغيره كالنظر إلى الأعضاء المحرمة من جسمه إذا اقتضى الحال.

على أن الإسلام قد حلل أصول الخليقة في آيات وأحاديث برهن تطور العلم في العصور الحديثة على عمق تحليلاتها والله قد خلق الإنسان من صلصال من ماء مسنون أو صلصال كالفخار أو من سلالة من طين أي خلاصة من مركبات جيرية على إثر تفاعلات فيزيائية كيماوية أحيائية في مزيج مائي أدت إلى تكوين عضوي لزب متلائم الأجزاء على غرار الفخار المتماسك.

وقد تأيد هذا الوضع[12] بأدلة علمية منها :

1) توافر العناصر الكيماوية الموجودة في الطين جزئيا داخل الجسم البشري وهذه «الجزئية» مضمنة في كلمة سلالة وقد تأكد من جهة أخرى في تجارب حديثة قام بها الكيماوي جيمس لاولس تشهد بأن «الحياة نشأت في الطين» وهذا يجف فتتولد عنه جزيئات تتكون منها نويات يجب أن تقارن مع ما وصفه القرآن باللزوب أو الصلصال ومعنى ذلك أن التجفف يسبق تكوين الجزئيات ما قبل الاحيائية في مستنقعات كالتي توجد في (وادي الريفت) بالبحر الأحمر.

12) راجع أطروحة الدكتور أمل العلمي حول الطب الإسلامي (جامعة الرباط ـ 1980).

تلك بعض الجوانب الدينية التي تشكل أساس الفكر الطبي في الإسلام والتي يمكن استثمار أبعادها العلمية في تحليلات تقنية دقيقة ضمن الأبحاث الجامعية الحديثة التي يجب أن تستهدف بالدرجة الأولى وصل برامج كليات الطب مع تعاليم الإسلام وعلينا لدعم هذا الرصيد الثري أن نستعرض عطاءات الفكر الإسلامي في التجارب الطبية الرصينة التي أغنت المكتبة العلمية الإنسانية.

وبودنا أن نضرب لهذا العطاء أمثلة مستقاة خاصة من إسهامات المغرب العربي كامتداد لإبداعات الشرق الإسلامي.

ويتجلى للباحث أن أبا بكر محمد بن زكرياء الرازي هو في الحقيقة أبو الطب العربي وقد ألف ما يناهز مائتي كتاب ترجمت جميعها إلى اللاتينية وقد وصف الجدرى والحصبة وهو أول من استعمل الفتائل في العمليات الجراحية وكذلك الأنابيب التي يمر منها الصديد والقيح والافرازات السامة وكان طبيبا إخصائيا حيث ألف كتاب «أمراض الأطفال» وكتاب «تجارب المارستان» فلا شك إذن أن الرازي يمكن أن يسجل في طليعة أطباء العرب.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد أكد لوكلير أنه إذا كان الكندي هو أول فيلسوف ظهر عند العرب فإن الرازي هو أول طبيب عند العرب (ج 1 ص 337).

وقد شعر العرب منذ القرن الثاني للهجرة بأهمية علم الصيدلة في التجارب الطبية كما اقتنعوا بأن معرفة الكيمياء أساسية في البحوث الصيدلية وقد أكد برتيلو في كتابه «الكيمياء في القرون الوسطى» أن كتب جابر بن

حيان في الكيمياء هي غاية ما وصل إليه العقل الإنساني من الابتكار وأن كل المشتغلين بهذا العلم من بعده كانوا عالة عليه.

وقد سبق العرب الأوربيين إلى وضع الأواني الزجاجية الكبيرة التي تحتوي على السوائل الملونة.

ثم جاء الأستاذ ابن سينا فكان أعظم مصنفاته الطبية بعد القانون هو أرجوزته المعروفة عند الأوربيين بـ «كانتيكوم».

وأهم شرح لها هو الذي ألفه ابن رشد وقد ترجم إلى اللاتينية وكان ابن زهر الأوسط يفضلها على القانون لأنها جامعة لمبادئ العلم.

ويعتبر كتاب القانون لابن سينا والحاوي للرازي وكتاب على ابن عباس أعظم الموسوعات الطبية التي انتجها العرب (لوكلير ج 1 ص 470).

ويوجد قرار جامعي مؤرخ ب 1617 يدل على أن كتب الرازي وابن سينا كانت أساس التعليم الطبي في جامعة لوفان في القرن السابع عشر وابن سينا كان أساس الدراسات في جامعات أوربا طوال ستة قرون (أعراف المسلمين وعاداتهم (كوتيي ص 245).

وأول من نظم صناعة الطب وقيدها حرصا على مصلحة الجمهور المقتدر الذي تولى الخلافة عام 295 ففرض تأدية امتحان وبلغ عدد المتخرجين في جانبي بغداد عام 319 هـ ـ 860 رجلا سوى من استغني عن امتحانه باشتهاره بالتقدم في الصناعة (القفطي ص 130).

وأجري أول امتحان للصيادلة أيام المعتصم عام 221 هـ. وقد جاء في (نهاية الرتبة في طلب الحسبة لعبد الرحمن الشيزرى (مخطوط) أن المحتسب

كان يحلف الأطبـاء أن لا يعطـوا أحـدا دواء مرا ولا يركبـوا لـه سما ولا يصنعوا السمائم عند أحد من العامة ولا يذكروا للنساء الدواء الـذي يسقـط الأجنة ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل والغض عن المحارم وعدم إفشاء الأسرار (أو السر المهني) والتوفر على جميع الآلات.

ومن انجع الوسـائـل التي كان العرب يقـاومـون بهـا الأمراض بجـانب المصحـات حسن التغـذيـة وتنـاسب الملبـوس مـع الفصـول[13] والأسـاليب الوقائية وفي مقدمتها الطهارة.

لهـذا نرى أن الحمامـات كانت متوافرة بصـورة غريبـة وقـد ألفت في حمامات دمشق كتب مثل (عدة الملمـات في تعـداد الحمـامـات) ليوسف عبـد الهادي من رجال القرن العـاشر ويقولون إن حمـامـات بغـداد بلغت بضعـة آلاف منذ القرن الثالث وفي القاهرة بلغت ثمانين فقط في القرن السـابع وفي نفس الوقت كان بالفسطاط أكثر من ألف حمام.

وذكر الخطيب البغدادي في تاريخه أن عدد الحمامات في عهـد الرشيـد والأمين بلغ ستين ألفا وذكر ابن جبير أن في بغداد ألفين من الحمـامـات قـد طليت سطوحها بالقار.

وقد نوه رينو بحكمة المسلمين في اختيار أزيائهم مثل الثياب الصوفيـة البيضاء التي توافق الصحة في البلاد الحارة والتي لا تخزن أشعـة الشمس أكثر من الحـاجـة وتحفـظ حرارة الجسم إبـان البرد زد على ذلـك أن الثـوب

13) عندما تحدث صاحب كنوز الصحة عن القبعات التي تحجز أشعة الشمس عن الأعين عند الأفرنج قال : «وقد استحسن ذلك أهل بادية المغرب وكذا بعض المغاربة فإنهم يلبسون على رؤوسهم مظـلات من خـوص لهـا دائرة واسعـة تقيهم من قـوة ضـوء الشمس... (ص 37 ـ 38).

الفضفاض يساعد على تسرب الهواء الضروري للتنفس الجلدي ولا يضغط على بعض الأجهزة مثل الكبد والمعدة (الصحة في المغرب ص 14).

وأبرز طبيب عربي ظهر في الأندلس في القرن الرابع هو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي صاحب كتاب «التعريف لمن عجز التأليف» وقد قال فيه أحد الجراحين الغربيين «لاشك أن الزهراوي أعظم طبيب في الجراحة العربية وقد اعتمده واستند إلى بحوثه جميع مؤلفي الجراحة في القرون الوسطى وكتابه هو اللبنة الأولى في هذا الفن وهو أول من ربط الشرايين ووصف عملية تفتيت حصاة المتانة واستخرجها بعملية جراحية وعالج الشلل وأول من استعمل خيوط الحرير في العمليات الجراحية.

وذكر لوكلير من جهته أن الزهراوي أعظم ممثل لعلم الجراحة في المدرسة العربية (ج 1 ص 334).

والظاهرة الطريفة التي امتاز بها كتاب التعريف للزهراوي هو إدراجه بإزاء النصوص لصور الآلات.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد عرف البرابر في المغرب العربي منذ عهود سحيقة حقن جراثيم الجدرى وكانوا يستعملونها لتحصين المصاب (كودار ـ وصف المغرب وتاريخه ج 1 ص 239).

ونقل الكانوني في «شهيرات المغرب» (مخطوط) عن كتاب «فن الأسنان بالمغرب الأقصى «أنه كان بفاس في القرن الرابع الهجري مدرسة طبية» وذلك أيام كان المغرب تحت نفوذ الأمويين.

نعم في العهد الذي كانت الأندلس خاضعة لسلطان مراكش تكونت ـ كما يقول لوكلير (ج 2 ص 240) ـ جماعة من الأطباء التفت حول ملوك

المرابطين والموحدين وسار معظمهم في ركاب هؤلاء الملوك إلى المغرب حيث قضوا بقية حياتهم في العلاج وتدريس الطب ـ فأفاد المغرب كثيرا من نكبة الأندلس.

ويظهر أن أبا العلاء زهر بن زهر أول طبيب أندلسي ورد على المغرب بعد استيلاء المرابطين على الأندلس وقد كان طبيبا خاصا ليوسف ابن تاشفين بعد أن كان طبيب المعتمد بن عباد باشبيلية.

وكانت له آراء شاذة في الطب منها منعه من الحمام اعتقادا منه بأنه يعفن الأجسام ويفسد تركيب الأمزجة (عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ج 2 ص 64 ـ 66).

وقد تمخضت تجارب أبي العلاء في المغرب عن تأليفه لكتاب «التذكرة» (الذي ترجمه وطبعه كولان عام 1911 بباريس) وهو مجموعة من الملاحظات سجلها لولده ابن زهر لتعريفه بالأدواء الغالبة في مراكش والأدوية المناسبة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبعدما توفي أبو العلاء أمر علي بن يوسف بجمع ملاحظات طبية أخرى كان أبو العلاء سجلها في أوراق وهي «المجربات» التي جمعت بمراكش عام 526 هـ والتي يوجد مخطوط منها في الاسكوريال (رقم 844).

وقد ترجم جان دوكابو التذكرة من العبرانية إلى اللاتينية (نسخة في مكتبة كلية الطب بباريس) ثم توالت التراجم عام 1280 والمطبوعات (عشر مرات بين 1490 و1554).

وتوجد الآن نسخة في مكتبة مدرسة اللغات الشرقية بباريس يرجع تاريخ طبعها إلى 1531 وهي تحتوي أيضا على كليات ابن رشد.

وهنالك رسالة في أمراض الكلى كتبها أبو العلاء لعلي بن يوسف ولا توجد سوى ترجمتها باللاتينية المنشورة عام 1497 كما يوجد مخطوط له حول الخواص بمكتبة باريس ومنه استقى ابن البيطار خواص لحوم الحيوانات.

ولأبي العلاء مقالة في شرح رسالة يعقوب بن إسحق الكندي حول تركيب الأدوية.

وولده هو أبو مروان عبد الملك بن زهر خدم المرابطين مثل أبيه وألف كتاب (الاقتصاد) لإبراهيم بن يوسف أخى علي (يوجد منه مخطوط بباريس رقم 2959) وكذلك نسخة في الاسكوريال حسب (رينو) محررة بالعربية ومكتوبة بحروف عبرانية وفرغ من الكتاب عام 515 هـ.

وقد أوضح بكيفية عملية الفرق بين الجذام والبهق ومسألة العدوى بل أفرد لذلك رسالة لم تصلنا ويذكرون أن ابن زهر هذا أعظم من ابن سينا ولا يعدله سوى الرازي في الشرق.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد تحدث ابن زهر في هذا الكتاب عن أطباء عصره فذكر أنهم يختلفون في الاعتناء بالمرضى وأن الناس يجهلون الطب لأن الطبيب الذي يستشيره مريض من المرضى يبادر فيصف له دواء من الأدوية دون تمحيص للحالة في جميع خواصها ثم ذكر أنه استدعي يوما من الأيام لدى أمير مرابطي فوجد جماعة من الأطباء شبابا وشيوخا لم يسبق له أن تذاكر معهم ولكنه تأثر بتجربتهم فجرت المذاكرة حول الداء الذي يشكو منه الأمير فبادر الأطباء الحاضرون ووصف كل منهم دواء فلم يوفق في نظر ابن زهر سوى واحد منهم ومع ذلك لم يستكنه سبب الداء ومما امتاز به وخالف فيه

أطباء عصره الأقدمين أنه كان يستعمل الفصد للشيوخ من سبعين سنة فأقل وللأطفال كذلك حيث فصد ابنه من ثلاث سنوات فأدهش معاصريه وكان والده أبو العلاء يوصى ببطيخ فلسطين أي الدلاح في عرف المغاربة في أمراض الكبد ويعالج بجس النبض والنظر إلى قوارير البول.

وكتاب (التيسير) قد كتبه أبو مروان بن زهر بطلب من ابن رشد كتذييل لكتابه (الكليات).

وقد أكد ابن عبد الملك في (الذيل والتكملة) أن ابن رشد كان يفضل ابن زهر على غيره من أهل عصره.

وقد نهج ابن زهر في كتاب (التيسير) أسلوبا جديدا في الحكمة القياسية مستخدما التمحيص العقلي للوصول إلى أحسن النتائج فهو طبيب التجربة والتمحيص العلمي وليس من صناع اليد كما يقول في «التيسير» أما في الميدان العملي فقد لاحظ ابن زهر أنه يأنف من إجراء العمليات الجراحية الكبرى بنفسه لأن رؤية الجروح تثير في نفسه ضعفا يوشك أن يسفر عن إغماء ولكنه لا يكره تحضير الأدوية غير مستعمل الخمر في تركيبها على سنن والده أبي العلاء حتى ولو أوصى بذلك جالينوس على خلاف الرازي.

وتحدث عن الأعمال اليدوية في الطب فلاحظ أنها موكولة لا عوان الطبيب مثل الفصد والكي وفتح الشرايين أما مهمة الطبيب فهي تقرير نظام الأكل عند المريض ووصف الأدوية له فهو لا يتناول شيئا بيده ولا يركب دواء وحكى أن والده لم يباشر شيئا من هذا القبيل بيده طوال حياته وحتى لو أراد ذلك لما وفق لعدم الاستيناس وتحدث عبد الملك عن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نفسه فذكر أنه كان هو نفسه ولوعا بالمباشرة اليدوية في الصيدلة وتجربة الأدوية والتوصل إلى قيمها وتركيباتها.

ولعل أبا مروان توصل بفضل قياساته الطبية وتجربته الشخصية إلى الكشف عن أمراض جديدة لم تدرس قبله فقد اهتم بالأمراض الرئوية وأجريت له عملية القصبة المؤدية إلى الرئة وتمكن هو بعد ذلك من تشريح القصبة في مرض الذبحة فعولج المريض.

وقد اختص ابن زهر في أمراض الجهاز الهضمي واستعمل انبوية مجوفة من القصدير لتغذية المصابين بعسر البلع واستعمل الحقن المغذية واكتشف طفيلية الجرب وسماها صؤابة الجرب كما بسط طرق العلاج القديمة وأوضح أن الطبيعة ـ إذا اعتبرناها قوة داخلية تدبر شأن الجهاز البشري ـ تكفي وحدها في الغالب لعلاج الأدواء (حضارة العرب جوستاف لوبون ص 530 من الطبعة الفرنسية).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكان أبو مروان إذا عالج مريضا نسي نفسه واستهلك في مريضه وهذا هو سر عبقريته فإذا عرضت عليه حالة شائكة حاول أن يعيشها واستمد من ذكرياته وتجاربه ومنطقه ولهذا كان نسيج وحده وانكب أطباء القرون الوسطى على دراسة كتابه التيسير الذي ترجم أولا عن العبرانية من طرف شخص مجهول (مخطوط بمكتبة ليد) ثم إلى الإيطالية عام 1260.

وقد تحدث ابن زهر في كتاب التيسير عن يمين ابقراط الذي كان يطالب بها جميع من يدرس مصنفاته ويقتضى منهم إلزام تلاميذهم بها.

والحفيد أبو بكر بن أبي مروان كان طبيبا شاعرا متين الدين خدم

الدولتين اللمتونية والموحدية (عبد المومن ويوسف ويعقوب والناصر) توفي عام 596 هـ بمراكش ألف (الترياق الخمسيني) ليعقوب المنصور.

وكان أبو بكر يحفظ صحيح البخاري بأسانيده (الأنيس المطرب ج 2 ص 180) ولم يكن في زمانه أعلم منه باللغة وكان يحفظ شعر (ذى الرمة) وهو ثلث لغة العرب (المطرب لابن دحية).

ومنهم أيضا أبو الوليد بن رشد الذي تميز في الطب وله كتاب (الكليات) الذي ترجم إلى اللاتينية وطبع ولما ألف كتابه هذا قصد من ابن زهر أن يؤلف كتابا في الأمور الجزئية لتكون جملة كتابيهما ككتاب كامل في صناعة الطب.

ولابن رشد تلخيص كتاب العلل والأعراض والتصرف والحميات والأدوية المفردة وحيلة البرء.

وقد اقترح ابن رشد في شرحه لابن سينا ما يصفه الأطباء اليوم وهو تبديل الهواء في الأمراض الرئوية وقد أشار إلى جزيرة العرب وبلاد النوبة كمراكز شتوية (حضارة العرب جوستاف لوبون ص 531 من الطبعة الفرنسية).

وابن رشد هو أول[14] من أشار إلى الدورة الدموية وعللها في كتابه (الكليات) الذي استمد منه ويليام هار في معظم نظرياته.

---

14) ابن النفيس المصري اكتشف الدورة الدموية الصغرى وهي الدورة الرئوية قبل الغربيين بثلاثة قرون (نشرة المعهد المصري ج 26 عام 1934 ـ بحث بقلم ماكس مايرهوف ص 33) وقد أشار ابن النفيس إلى ذلك في «الكتاب الشامل في الطب» الذي كان يحتوي على 300 مجلد وقد أهدى مؤلفه منه 80 مجلدا.

أحمد بن محمد أبو جعفر الذهبي المتوفى بتلمسان عام 601 هـ / 1202م كان عالما بصناعة الطب فيلسوف الأندلس مع تبريز في الفقه والقراءات والنحو واللغة عينه المنصور الموحدي نقيب الطلبة والأطباء بمراكش وطبيبه الخاص وكذلك لولده الناصر الموحدي.

وله شرح على صحيح مسلم.

(عيون الأبناء) ج 3 ص 132 / ج 2 ص 81.

أبو يحي هانئ بن الحسن اللخمي الغرناطي له مشاركة في الحديث والأصول والطب تتلمذ لابن فرتون بفاس توفى عام 614 هـ (الجذوة ص 335).

وقد رحل إلى المشرق أطباء مغاربة منهم علي بن يقظان السبتي الطبيب الشاعر الأديب الذي توجه إلى مصر عام 544 ثم إلى اليمن والعراق (القفطي ص 160) وكذلك يوسف بن يحي بن اسحق السبتي ابو الحجاج نزيل حلب ويعرف في سبتة بابن سمعون كان طبيبا من أهل فاس «وقرأ يوسف الحكمة ببلاده (أي سبتة) فساد فيها (القفطي ص 206) وذكر لوكلير أنه كان طبيب ميمون أمير حلب وطبيب الملك الظاهر وصديقا للقفطي (ج 2 ص 193).

أبو جعفر عمر بن علي القلعي المغربي طبيب ماهر في الأدوية والأمراض وعلاجها كتب ملاحظات على كتب ابن سينا ولد بالمغرب وعاش في دمشق حيث كان له دكان للعيادة توفى عام 576 هـ (لوكلير ج 2 ص 40).

أما المستشفيات فما أنشأه أبو يوسف (دار الفرج) في شرقي الجامع

المكرم وهو مارستان المرضى يدخل العليل فيه فيعاين ما أعد فيه من المنازل والمياه والرياحين والأطعمة الشهية والأشربة المفوهة ويستطعمها ويسيغها فتنعشه من حينه (الاستبصار في عجائب الأمصار).

ووصف عبد الواحد المراكشي المستشفى الموحدي بمراكش فقال : «وبنى بمراكش بيمارستان ما أظن أن في الدنيا مثله وذلك أنه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد وأمر البنائين باتقانه على أحسن الوجوه فاتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة مازاد على الاقتراح وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المثمومات والمأكولات وأجرى فيه مياها كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على أربع برك في وسط احداها رخام أبيض ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت. وأجرى له ثلاثين دينارا في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة خارجا عما جلب إليه من الأدوية وأقام فيه الصيادلة[15] لعمل الأشربة والأدهان والاكحال وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء فإذا نقه المريض فإن كان فقيرا أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل وإن كان غنيا دفع له ماله... ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى... ولم يزل مستمرا على هذا إلى أن مات (المعجب ص 177).

---

15) ذكر البيروني Aliboron في مقدمة كتاب الصيدلة في الطب أن لفظة الصيدنة بالنون أكثر اشتهارا من الصيدلة باللام (ماكس مايرهوف ـ نشرة المعهد المصري ج 22 عام 1940).

وذكر في (كتابه الموحدون) المؤلف عام 1923 ص 129 أن هذا المستشفى لا يخلف وراءه مصحات أُوربا المسيحية فحسب بل تخجل منه حتى اليوم مستشفيات باريس.

ولا بدع إذا كان مستشفى الموحدين بهذه المثابة بالنسبة لأُوربا فقد قال ولتر في مختصر التاريخ : «ازدهر علم الطب والتداوي عند العرب على حين كان الأُوربيون يجهلون هذا العلم الشريف ويحتقرون أربابه إذ أن الكنيسة كانت قد حرمته عليهم وحصرت التداوي في زيارة الكنائس والاستشفاء بذخائر القديسين وبالتعاويذ والرقى التي كان يبيعها رجال الدين «إلى أن قال : وكان الأُوربيون يستنكفون من النظافة لأنها تشبه الوضوء عند المسلمين».

وأبو يوسف المريني هو الذي صنع المارستانات في جنوب المغرب للغرباء والمجانين وأجرى عليها النفقات وجميع ما يحتاجون إليه من الأغذية وما يشتهونه من الفواكه وأمر الأطباء بتفقد أحوالهم في أُمورهم ومداواتهم وما يصلح أحوالهم (الذخيرة السنية ص 100) ولم تكد تخلو مدينة من مارستان.

على أن الطب كان في إفريقية ـ كما كان في المغرب ـ مشاعا بين طبقة وافرة من الفقهاء والمحدثين والأُدباء.

فهذا مثلا الإمام السنوسي شارح البخاري له شرح على رجز ابن سينا في الطب وله شرح كبير على الحوفية في الفرائض والحساب ألفه وهو ابن تسعة عشر عاما (النيل ص 353).

وقد أكد رينو أن علم الطب كان يدرس في جامعة القرويين بواسطة كتب ابقراط وجالينوس وديجينوس المعربة إلا أن كتب خزانة القرويين اندرس بعضها على يد الإسبان عام 1161م ولم تعد تدرس العلوم والطب رسميا اللهم إلا ما كان من دروس يلقيها (أطباء) في جوامع العاصمة أو بعض زوايا المدن الأُخرى[16] حيث يعلقون على المصنفات العربية المخطوطة أو المطبوعة الموجودة في الطب بالمغرب محافظين بذلك على ما يعرفونه من الطب التطبيقي وقد ازدهر في هذا الإبان بالشرق والأَندلس خاصة علم النبات وطب العيون وظهر أمثال النبطي وتلميذه ابن البيطار وهما أندلسيان ورشيد الدين الصوري المتوفى عام 639 وهو أكبر نباتي العرب طرافة وأصالة وقد عرف الشرق نوعا من الاختصاص في المستشفيات فأضيفت مثلا إلى مارستانات دمشق أجنحة للكحالة أو طب العيون.

والنبطي هذا هو أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج المعروف بابن الرومية[17] ولد في إشبيلية عام 561 هـ (وفي رواية أُخرى 567 هـ) ودرس الأَعشاب شخصيا دون اعتماد على ديسقوريدس وجالينوس واقتبس منه تلميذه ابن البيطار ذوقه الخاص وعلمه الواسع وقد رحل إلى الشرق عام

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

16) وورد في الجزء الأول من سلسلة «مدن المغرب وقبائله» المتعلق بالرباط وناحيته (ص 32 و 225) أن البوعنانية بسلا كانت مدرسة للطب ونقل ذلك عن الاستقصاء غير أن الاستقصاء لم يتعرض لهذا عندما أشار إلى هذه المدرسة (ج 2 ص 151) كما أشار نفس المصدر إلى عمر بن عربية أُستاذ الطب في العهد العلوي.

17) ذكر ابن الخطيب في الإحاطة أن ابن الرومية ويقال له ابن العشاب كان إماما في الحديث حافظا ناقدا... قام على الصناعتين لوجود القدر المشترك بينهما وهما الحديث والنبات إذ موادهما الرحلة والتقييد وتصحيح الأُصول.

613 هـ (أو 614) بعدما درس أعشاب الأندلس ومر بالمغرب حيث أشار في كتابه إلى أعشاب ومدن مغربية ودعاه الملك الأفضل للاستيطان بالقاهرة.

وقد صنف كتابا حسنا كثير الفائدة، في الحشائش ورتب فيه أسماءها على حروف المعجم وفاق أهل زمانه في معرفة النبات وقعد في دكان لبيعه توفى باشبيلية عام 638 هـ (النفح ج 1 ص 635).

أما ابن البيطار فقد ذكر لوكلير (ج 2 ص 225) أنه أعظم نباتي العرب وأنه لا يضاهيه من أطباء العرب سوى الغافقي والشريف الإدريسي وأبي العباس النبطي ورشيد الدين الصوري الذين درسوا كلهم الطبيعة ووسعوا دائرة المعلومات البشرية وقد استفاد ابن البيطار مما كتبه الصوري كما تنقل في جبال الشام صحبة رسام كان يصور له الأعشاب وخلف لنا أعظم مجموعة في العلوم الطبيعية الطبية عند العرب. وقد رحل إلى الشرق عام 1216 أو 1217م ومر بالمغرب وسجل ملاحظات شتى حول الأعشاب وبعض الأسماء البربرية التي اندرجت منذ ذاك في القاموس العربي.

وكان ابن البيطار يتجول مع تلميذه ابن أبي أصيبعة للبحث عن الأعشاب وقد مات في دمشق عام 1248م خلافا لما زعمه الحسن الوزان من أنه مات بالأندلس وذكر المقري أن ابن البيطار حشر في كتابه ماسمع به وقرأه في تصانيف الأدوية المفردة، ككتاب الغافقي وكتاب الزهراوي وكتاب الشريف الادريسي السبتي وغيرها وضبطه على حروف المعجم كان أوحد زمانه في معرفة النباتات سافر إلى بلاد الأغارقة وأقصى بلاد الروم والمغرب وخدم الكامل بن العادل الذي عينه رئيس العشابين بمصر (النفح

ج 2 ص 683) (ويسمى علماء النبات في الشرق بالعشابين والشجارين والنباتيين والحشائشيين كما في التذكرة التيمورية).

وكتابه (جامع المفردات) أكمل وأوسع ماصنفه العرب في الطب وقد ترجمه لوكلير إلى الفرنسية وهو يتضمن الفي وصفة من أوصاف العقاقير.

وقد ذكر ابن البيطار عبد الله بن صالح الكتامي مع النبطي وأبي الحجاج الإشبيلي كأساتذة له ونقل عنه ابن البيطار عند تعرضه للأعشاب التي شاهدها باسبانيا والمغرب وبالأخص أرباض فاس (ص 248).

وكتاب الأدوية للشريف الإدريسي الذي أشار إليه إبن أبي أصيبعة والذي هو مليء بالملاحظات الشخصية قد اقتبس منه ابن البيطار في مائتي موضع من كتابه في الأعشاب (لوكلير ج 2 ص 8) واعتمد عليه وحده في ثلاثين موضعا (ص 68) وتحدث عن أعشاب المغرب وعرف أحيانا بأسمائها البربرية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولكن مرت فترة عصيبة بالشرق فتت في عضد الفنون والفلسفة والتعاليم بسبب غارات المغول الذين ما لبثوا أن اعتنوا بالعلماء بعد إسلامهم بفضل جهود الطبيب قطب الذين الشيرازي تلميذ الفخر الرازي (لوكلير ج 2 ص 121).

وتخرج عند ذاك أمثال القزويني العالم في الطبيعة الذي يشبهه الغربيون بالعالم بلين وبالأندلس ورث بنو الأحمر حضارة العرب من أوربا المسلمة وأصبحت غرناطة التي ظلت تابعة لبني مرين فترة من الزمن ملجأ العلم والفن في أوربا المسلمة إلى سقوطها في يد الإسبان عام 886 هـ. ومن أبرز مؤرخي هذا العصر الذين عنوا بتاريخ الطب ابن الخطيب.

«ودراسة عصر ابن الخطيب مفيدة ـ كما يقول رينو ـ للطبيب لأنها عصر الطاعون الأسود الأكبر الذي هلك فيه حسب المؤرخين ثلث سكان المعمور وقد صنف بعض الأطباء المغاربة مؤلفات في علل هذا الداء وطرق علاجه» (الطب القديم بالمغرب ص 47).

ثم تعاقب في العصور التالية أطباء واصلوا إثراء التراث العربي الإسلامي من بينهم :

ابن ثابت علي بن سعيد التلمساني المتوفى (عام 829 هـ / 1426م) له 28 كتابا خاصة في أُصول الدين والطب (تعريف الخلف ج 2 ص 259 / الاعلام للزركلي ج 5 ص 75).

عبد الرحمن سقين القصري ثم الفاسي المحدث كان مشاركا في الأدب والتصوف والطب يقرئ ابن سينا توفى عام 956 هـ (النيل ص 153).

عبد الوهاب الزقاق الذي كانت له مشاركة في الأدب والأصلين والطب والتفسير والحديث والنحو ولي القضاء والفتوى بفاس (توفى عام 961 هـ).

وقد نصح المنصور السعدي ولده في رسالة وجهها إليه باستعمال الدواء إبان الطاعون الذي طرأ في عهده في وصفات تدل على براعة المنصور في الطب ومن جملة ما أوصاه به عدم فتح الرسائل إلا بعد غمسها في الخل القوي ثم تنشيفها وهذا يدل ـ كما يقول رينو ص 79 ـ على أن المغرب كان يعرف إذ ذاك ان عزل المرضى أصلح وسيلة لدرء المرض.

ولا ينبغي الخلط بين الطاعون والوباء فالفرق بينهما كما يقول محمد بن أبي العاص الأندلسي صاحب الرسالة في تحقيق الوباء أن الطاعون مصحوب

دائما بذبيلة أي عقدة عصبية ملتهبة في حين أن الوباء قد لايتخض عن أي التهاب من هذا النوع ولكن كلاهما قاتل.

وبالرغم عن انخفاض المستوى الاجتماعي العام كانت الوفيات قليلة إذا استثنينا الظروف الخاصة فقد ذكر الحسن الوزان أن في مجموع بلاد البربر بلغ معدل العمر مابين 65 و 70 سنة ويرتفع هذا المعدل أحيانا إلى 80 بل 100 سنة في المغرب بينما ينخفض إلى 60 في ليبيا وأقل من ذلك في السودان (ماسينيون ص 83).

وقد أقام المغرب محاجر صحية لفصل المرضى عن الأصحاء مسهما بذلك في محاربة التلوث المجتمعي.

وكان الجذمى يعيشون في الكهوف القريبة من فاس (جذوة الاقتباس ص 17) وكانت في أرباض كثير من المدن حارات للجذمى.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ورغم ما استظهره رينو من أن التعليم الرسمي للطب والعلوم أندرس بجامعة القرويين أواخر القرن الماضي (الطب القديم بالمغرب ص 77) فإن دلفان أشار في كتابه حول فاس وجامعتها (المطبوع عام 1889) إلى اعتناء الطلبة بجملة من الكتب الطبية مثل الكامل للرازي والقانون والمنظومة لابن سينا وزبدة الطب للجرجاني والتذكرة للسويدي وتذكرة الأنطاكي وكليات ابن رشد ومفردات ابن البيطار وكشف الرموز للجزائري ابن حمادوش وهو عبد الرزاق بن محمد بن محمد بن حمادوش الجزائري حج عام 1130 هـ. وأهم مؤلفاته «كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب» مرتبة على الحروف (تحتوي على نحو الألف عشبة) وهو ينقل عن ابن سينا وابن

البيطار والأنطاكي وله أيضا «تعديل المزاج بحسب قوانين العلاج» (نحو العشرين صحيفة)

وقد تحدث رينو عن اهتمام الأطباء عندنا بالتشريح والعمليات الجراحية فلاحظ أن هذه العمليات لاتتمخض في الغالب عن ذيول مخطرة لندرة الاستعصاءات الناتجة عن التعفن أو الاصداد والتقييح ويستعمل الأطباء المغاربة في تضميد القروح الزيت الغليان أو القطران الساخن والحناء والفحم وصمغ الصنوبر لاستئصال جراثيم التعفن (ص 132) وعند حدوث نزيف يستعملون لإيقاف الدم الصوفان والمساحيق المستخلصة من اليقطين (القرع الصغيرة) ودقيق الفول واللفافات للضغط فإذا أعياهم الأمر حاولوا الالتئام بخياطة حافتي الجرح في شكل منحرف ويلجأون كذلك إلى كي العرق إما بقضيب محمى وإما بقطعة من خشب محماة ثم يضمد الجرح بالجاوي ويحكى أن القروح تلتئم في حاحا والسوس لا بالخياطة ولكن عن طريق عضة النمل الكبير لحافتي الجرح بحيث يقطع صدر البعوضة ويبقى الفكان عالقين بالقرح.

أما في جبر الأعضاء المنكسرة فإن الأطباء المغاربة يعمدون إلى طريقة الدلك الذي سبق به المغاربة ـ كما يقول رينو ـ اكتشاف لوكاس شامبيونيير، وكثيرا ما يعطي الطبيب لمن كسرت عظامه ايلان وهو حب يكثر في ناحية مراكش غني بمادتي الفوسفاط وكاربونات الجير ويوقف داء الفتق بآلات من جلد أو ثوب محشو بالصوف أما الكي فإنه مستعمل في جميع الأمراض الباطنة وفي كثير من العمليات الجراحية (ص 134).

وتقطع الأسنان المسوسة بأدوات خاصة ذكر ربنو منها مجموعة بعضها مصنوع في المغرب وبعضها مجلوب من أوربا ومن الأطباء من يضخ السن

بمركب من الثوم والملح والحريف (وهو الفجل الوحشي أو الحرف) ثم يملأون السن المسوسة بجذر جوز ريان بعد غمسه في اللبن ويغطى الكل بالصمغ (135).

وتداوى أمراض الأُذن بالجاوي والزعفران والزيت وعصير ناب الذيب أما القروح فإنها كثيرا ما تداوى بالعمليات الجراحية في الأُذن وهي عمليات خطيرة تكلل بالنجاح بسبب قلة القيوح.

أما العيون فإن أمراضها تشكل مع الزهري ثلثي أمراض إفريقيا الشمالية فما أكثر العميان بالمغرب غير أن للكحالين أي أطباء العيون المغاربة أساليب مفيدة لمعجالة أنواع الرمد ولهم فيه مهارة وكذلك في الجزائر (ص 136) ويستطيعون أن يزيلوا بحذق غشاوة العين المانعة من الإبصار بل يتقنون عمليات أصعب من هذه (ص 136).

وذكر كودار في «وصف المغرب وتاريخه» (ج 1 ص 238) أي الكي هو أعظم دواء للجراحات بالمغرب والجزائر وأن هذه العملية أسفرت غالبا عن نتائج عجيبة.

أما تبنيج المريض أثناء العمليات الجراحية فقد أكد رينو أن الأطباء المغاربة كانوا يستعملون السيكران وهو عشب مخدر وكذلك جوز الطيب في عملية الختان وقد حكى له الطبيب الجراح الحسن أنه توصل إلى تركيب دواء من السيكران والكبريت وغيرهما يكون البخار المتصاعد من طبخه بمثابة مخدر يستمر تأثيره أربعا وعشرين ساعة وذكر الدكتور ميكيريز في كتابه (الأخبار) الصادر عام 1859 بالجزائر أن الأطباء المغاربة كانوا يستخدمون وسائل الإيحاء والتنويم في معالجة مرضاهم وإجراء عمليات

جراحيـة لهم بحيث يتوصلون إلى درجـات شتى من التنويم ولا تختلف هـذه المناهج عن الأساليب المستعملة عند الأُوربيين ومنها تعليق زجاجـة لامعـة مثـلا أمـام المريض فينـام بينمـا المبـاخر ترسـل روائـح العطر والعـود (رينوص 131).

وقد وصف كودار كذلك في تـاريخ المغرب (ج 1 ص 240) عمليـات التنويم التي أشار إليها الدكتور ميكيريز منهـا وضع زجـاجـة فوق طـاولـة مغطـاة بخـوان أبيض يتـلألأ وراءهـا مصبـاح فيجلس المريض على مسـافـة قريبـة مصوبـا نظره نحو الضوء فيشعر بتثـاقـل وبعـد بضـع دقـائـق ينـام وتتسارع دقات قلبه ويحرق البخور في الغرفة فيفقد النائم إحساسه.

وذكر رينـو أن بعض الأطبـاء المغـاربـة كانـوا متخصصين بعضهم في الأوجاع وبعضهم في أمراض العيون وبعضهم في الحميات أما أطبـاء الأسنـان فإنهم يمارسون هذا الفن - في نظر رينو - بمهارة كبرى (ص 122).

وكثيرا مـا تستعمل أعضـاء بعض الحيوانـات لمعـالجـة الأمراض وهـذه الطريقة تستعمل كثيرا في أُوربا (رينو ص 155) ولا يجهل المغاربة جدوى اللحوم غير المطبوخة وقد أشار الشيخ عبـد الرزاق صـاحب (كشف الرموز) إلى خواص بعض أعضاء الحيوانات منها معالجة داء الكلب بمثقال (غرام) من كلية الكلب العقور بمجرد قتله ويؤيد هـذا النوع من العلاج مـاذكره رينو (ص 157) من أن الـدكتـور فرانتزان نشر بحثـا في «الأُسبـوع الطبي» (14 مـايـه 1898) ذكر فيـه أن مرارة الكلب العقـور تحتـوي على مـادة مضـادة لجراثيم داء الكلب.

ويستعمل الكحالون المغاربة أعضاء حيوانية خاصة في أمراض العيون

من ذلك مستخلص الكبد والأكياس التي توجد فوق الكليتين والتي استعملها أيضا باطيس في نيويورك ضد التهاب القرنية والملتحمة وكذلك ضور في ليون ودرايي في باريس (رينو ص 160).

ونشر بنسيمون بحثا حول الطب والأطباء بالمغرب قبل الحماية في مجلة المغرب الطبي (شتنبر 1951) ذكر فيه أنه يجب أن نلاحظ أن الطب البدائي التقليدي بالمغرب كان يستعمل في عدة حالات أنواعا من العلاج لم يعد نزاع في جدواها فمن ذلك أن المريض المصاب بالحصبة أي الحميرة (بوحمرون) كان يجعل في غرفة يكسى فراشها وجدرانها وأغطيتها بلون أحمر وهذه الطريقة في العلاج لايزال يستعملها الدكتور شاطينيير الذي لاحظ أن لها يرجع الفضل في تخفيف تفجر الحميرة والحمى وتدارك الاستعصاءات.

ولا يوجد عمليا بيطريون في المغرب ولكن إذا مرضت دابة يلتجأ إلى الطبيب أو الحداد على أنه يوجد في جميع المدن بياطرة لهم معرفة ببعض الأمراض بل لهم اختصاص في أدواء الأفراس والبغال والحمير والجمال ويستعمل بالأخص الكي والفصد والخصاء.

ومن المربين للخيول من يساعد على التوليد إذا صعب الوضع وقد لاحظ رينو بمزيد الدهشة استعمال المغاربة للتلقيح ضد مرض منتشر عند المعز يعرف بالبيور وهنالك أمراض مجهولة في المغرب مثل الكزاز (تيتانوس).

وقد ساق رينو (ص 171) 36 نوعا من أنواع الأمراض التي تصاب بها الأفراس والبغال والحمير والجمال والبقر والغنم والمعز مع الأدوية المستعملة لعلاجها.

ومن العوائد البيطرية بالمغرب ما ذكره أركمان في «المغرب الحديث» من أنه عندما يلاحظ هزال عند الافراس بالرغم عن حسن تغذيتها دون أن يكون لذلك سبب معلوم يعمد سائسها فيعطيها نصف رطل من الزبد النامس المذاب (أي مايسمى عندما بسمن الترياق) خلال ثلاثة أيام متوالية مع إخلاد للراحة.

وكثير من الأمراض المنتشرة في أُوربا غير معروفة بالمغرب ولا في الجزائر منها الحمى الوبائية المصحوبة بحبوب صغيرة والحمى الحصبية بينما تقل جدا الإصابات بالدفترية أو التيفويد (رينو ص 140).

وبقدر ما كان يكثر السل في الصغار بقدر ما يقل عند الكبار أما الوباء فإنه لم يظهر في المغرب منذ 1818 وظهرت الكوليرا لآخر مرة عام 1895 (ص 141).

وكان الجدري يظهر كل سبع سنوات تقريبا ويعمد بعض الناس إلى التلقيح ضد الجدري بحقن جراثيم بثور ودماميل العجل أو الناقة بينما يستعمل آخرون الكبريت والملح ويخلدون إلى الراحة في مكان مظلم.

وكان داء البواسير كثير الانتشار لكثرة استعمال التوابل وكذلك أمراض المعدة والأمعاء بصورة عامة.

والحياة في الهواء الطلق مع قلة وسائل الدفء من شأنها أن تثير السعال وداء العصب (الروماتيزم) ولكن المغاربة كانوا يستعملون كثيرا من المعاجين والأدهان التي لم تكن تخلو من جدوى وأصالة (ص 142).

أما الزهري (النوار أو حب الأفرنج) فقد لاحظ الحسن بن محمد

الوزان (ليون الإفريقي) انتشاره في المغرب في القرن العاشر الهجري بحيث كان عشر السكان مصابين به تقريبا والكبريت الموجود في حمة مولاي يعقوب نافع لهذا الداء.

ومن الأمراض الجلدية سلاط ـ وهو انتفاخ الجلد ـ الذي كان منتشرا بالمغرب لاسيما في سلا بقدر ما انتشر داء الفتق بالرباط وكلا المرضين كان ناتجا عن وجود عناصر دخيلة في مياه الشرب.

وكذلك الجذام المنتشر بالمغرب وكانت بفاس حارة الجذمى بباب الخوخة ثم نقلت إلى الكهوف بعيدا عن المدينة عندما جددت الأسوار وقد لاحظ رينو أول هذا القرن عدم وجود حارات من هذا النوع بفاس غير أنه يوجد حي بمراكش قرب باب دكالة خاص بالجذمى وكذلك على بعد ساعة من الجديدة وكان يوجد قبل سنة 1899 «دوار المجاذمة» يحتوي على 200 من المرضى ولكنهم تشتتوا (ص 147).

وقد أصدر السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن ظهيرا خاصا في 10 رجب 1283 موافق 18 نونبر 1866 جعلت بمقتضاه جزيرة الصويرة محجرا صحيا للحجاج.

وكان المخزن يتخذ الإجراءات اللازمة للحيلولة دون انتشار الوباء من الخارج بفضل الحصار الدقيق الذي يضرب أيام الخطر ففي عام 1089 هـ عندما ظهر الطاعون بمكناس والقصر وقف الحراس من العبيد على مشرع سبو وغيره لايتركون من يرد على فاس ومكناسة وعلى دائرة الملك وقد ظهر بفاس فأمر السلطان بتحريق ما بسوق الخميس (نشر المثاني ج 2 ص 44).

وقد أشار رينو إلى اجتماع عقده أربعة من علماء فاس في 8 شوال 1310 لامتحان طبيب مغربي فشهدوا بعد استفساره بتضلعه في الطب وقوانينه وتطبيقاته ومعرفته بتركيب الأدوية وتقاسيم الشرايين ووظائفها وعددها وعدد العظام وتمييزه بين أنواع العصب والعضلات في الجسم ومعرفة النباتات والأزهار والأعشاب الطبية وخواصها وأسمائها وطرق إذابتها في الوقت الصالح والأوقات المناسبة لوصفها للمرضى وبعد المداولة بين العلماء خولوا للطبيب إجازة (ص 121).

تلك معالم ومراسم تعطينا صورة مكبرة عن عطاءات الفكر الإسلامي في دعم معطيات الفكر الإنساني مما يجمل أن يتخذ أساسا للدراسات الطبية في الجامعة الإسلامية.

الرباط **عبد العزيز ابن عبد الله**

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com